منفردًا بلا انيس ولا حليف يصل الينا واحدًا بعد الآخر. فمن البلابل يصل الذكر اولًا وهو يسبق ليختار مسكنى عائلته في فصل الصيف ويهيّئ كلّ شيء قبل وصول الانثى رغبةً راحتها من مشقّة الطريق وتلك اخلاق افرنجيّة جميلة اعتادت على مداراة الجنس الضعيف وبودّنا لن نعلم اذا كانت بلابل المشرق ألفتها او ذاقت حلاوتها. ثم ان بلبلنا لا يهوى الغابات والاشجار الباسقة ولا تروق لهُ غير سكنى الرياض والجنائن ويفضل في احياء باريس تلك الجنائن الاعظم افتنانًا وجمالًا ولا غرو في ذلك فانهُ موسيقي بارع تمرّس على اغاني المغاني ونغمات العود والاوتار ومتى تهيأ المنزل وطاب المنهل تأتي الأنثى رافلةً بثوب الدلال وتفرّق مساكن هذا السرب الشهي ويغرق كلٌّ منهُ مضاربهُ الجناحية في مضرب منفرد وتسرع الانثى بعد ذلك في تهيئة العش وحدها (وليس ذلك من الاخلاق الافرنجيّة) وتخفيه بين الاغصان المنخفضة عديم الاتقان والمتانة فربّما اصابت بذلك لانّ حاجتها بهِ وقتيّة. ويُوصف هذا الطائر بفرط وداده لفراخه فقلّما فارقها الّا ليأتيها بالقوت وذلك من اطباع اصحاب الموسيقى فان شعائرهم اشدّ تأثرًا بالوداد والغرام وكثيرًا ما اغفل هذا الطائر عن منافعهِ الخصوصيّة والتهى بحب فراخهِ. وفي خلال هذه المدّة يكون الذكر مصطادًا او مُغنّيًا او نائمًا يُغرّد في رقادهِ ويقطع وحشة الليل متصبّبًا بنغماتهِ ويظهر انّهُ يتأثر فرحًا بالحركة التي تنقل اليهِ صدى هذه النغمات وكأنّهُ يأتي في فصل الربيع ليُنشد باشعارهِ الطنّانة تلك الليالي المقمرة بين نضارة الاغصان ونموّ النبات

تسريح الابصار

في ما يحتوي لبنان من الآثار

للاب هنري لامنس اليسوعي (تابع لما سبق)

١٨ جبيل (تتمّة)

واول ما يستلفت النظر من آثار جبيل بُرجها فان بقاياهُ الضخمة لم تعمل فيها صروف الزمان. وهو لا يزال منتصبًا يُنبئ بعظم شأن بُناتهِ

وموقع البرج المذكور في جنوبي شرقي المدينة لهُ منظر خطير يأخذ بمجامع لبّ ناظرهِ. وهو مبني بحجارة كبيرة ولعلّ ذلك الذي حمل أغلب الكتبة على ان ينسبوهُ الى

الفينيقيين زعماً منهم انَّ قدم الابنية يُعرَف بعظم حجارتها وضخم موادّها. وكانوا يزيدون على هذا تأييداً لرأيهم انَّ على البرج المذكور مسحةً من العتاقة تشهد بقِدَمه

بيد انَّ ذوي الخبرة من المهندسين واصحاب العاديات أبطلوا هذا الزعم بعد الفحص المدقّق وبيَّنوا ببراهين مقنعة انَّ هذا البرج من عمل الصليبيّين في القرون المتوسّطة. وسَنَدُهم في ذلك الى ما يُحدق بالبرج الكبير من الابنية الثانويّة وهي عبارة عن بروج صغرى لا سبيل الى نسبتها الى الفينيقيّين لما يدخل في تركيبها من الموادّ المأخوذة عن ابنية اقدم عهداً شادها اليونان والرومان كاعمدة من الصوّان أُدرجت في جدران هذه البروج. وهذا الامر شائع في ابنية الصليبيّين بخلاف الامم السابقة لعهدهم. اعني انَّهم كانوا اذا دخلوا بلداً انتفعوا بخرائب آثاره القديمة كالهياكل والقصور فيتّخذون موادّها لابنيتهم الجديدة ويستغنون بذلك عن نقلها من المقاطع. فاذا ثبت انَّ هذه البروج الصغرى هي للصليبيّين يصحّ القول ان البرج الكبير هو ايضاً من آثارهم لما بينهُ وبينها من الشبه في هيئة الحجارة وطريقة النَّحت فانَّ لحجارة كليهما نتوءاً متشابهاً ولهيئتها عتاقة واحدة(١ مع ما ترى بين حجارتها من الاختلاف في الكبر. وهناك ايضاً عدَّة تفاصيل هندسيَّة عُرف بها الصليبيُّون دون غيرهم منها شعار البنّائين وعلاماتهم وقطع كتابيَّة يونانيَّة ورومانيَّة أُقحمت في البناء بلا نظام

هذا واننا لا ننكر ان الحجارة الكبيرة التي تُرى في البرج الكبير هي من نَحت الاقدمين وقد بيَّنّا غير مرَّة لاسيما في خلال كلامنا عن دير القلعة انهم كانوا يحبُّون اتخاذ موادّ ضخمة لبناياتهم. ولكن الصليبيّين نقلوا هذه الحجارة التي وجدوها فاتخذوها لشؤونهم الخاصّة

اما آثار قدماء الجبيليّين فقليلة جدًّا. منها عدد كبير من العواميد تراها في كلّ انحاء البلدة حتى يسوغ ان ندعو جبيل مدينة العواميد. وقعر مينائها الصغير مفروش كلُّهُ بهذه العواميد. وهي من الصوان الصاب قد نُقلت من بلاد مصر بحرًا. ولا نشكّ

١) وهذه العتاقة ليست بدليل قاطع على قدم هذه الابنية وانّما هي لاحقة بصنف الحجارة الرملية التي تتصل في الساحل. فانّ ابخرة البحر والرطوبة تعملان فيها عملاً سيّئاً فيتكوّن من براها انّما عريقة في القدم مع انها حديثة. وترى مثل ذلك في بعض بنايات بيروت التي لا يتجاوز عهدها ٢٠٠ سنة

في انها كانت داخلةً في الهياكل والمعابد العديدة التي كان يتباهى بها اهل جبيل لانَّ مدينتهم كما سبق لنا القول كانت مركز الديانة الفينيقيَّة يحجّ اليها اهل البلاد ليتيمّنوا بزارها. وكان للبلد ايضاً اروقةٌ واسعة قائمة على مثل هذه العمد في صدر الشوارع الكبرى كما كان شأن المدن الرومانيَّة في ذلك العهد

ومما يستحقّ الذكر ايضاً بعض قوائم ومساند كانوا يضعون فوقها التماثيل. ومنها ايضاً مذابح صغيرة وحجارة عليها كتابات لا يسعنا هنا تعدادها ووصفها واكثرها قد نُشر بالطبع في اوربَّة. وقد اسعدنا الحظّ على وجود بعض منها كُتبت باليونانيَّة لم تسنح لنا الفرصة حتى الآن بنشرها

فهذه غاية ما نرى الى ذكره سبيلاً عن عاديَّات جُبيل الباقية في ضمن سورها. وهي لعمري تزرة بالنسبة الى شأن هذه المدينة وخطرها. ولا غرو ان تحت ردمها آثاراً جليلة وكنوزاً علميَّة سوف يطلعنا عليها المستقبل اذا ما تيسَّر للعلماء ان يحفروا حيث شاؤوا. وما يزيدنا ثقةً بهذه الاكتشافات انَّ اهل جبيل كثيراً ما يجدون في املاكهم امتعةً شتَّى غالية الثمن يبيعونها خفيةً للاجانب كالتماثيل والنقود والقطع المدنيَّة الى غير ذلك مما لا يمكن ضبطهُ وتدوينهُ في كتب آثار بلادنا

ومن ابنية القرنج في جبيل كنيسة مار يوحنَّا المارونيَّة. وهي كانت سابقاً ارحب منها اليوم ولعلَّها كانت مزيَّنة برواق في صدرها. وهندستها كهندسة كنائس الصليبيين ذات ثلثة اقسام مقبَّبة تنتهي بحنايا. ونقوش أكلَّة عَمَدها في قسمها الكبير تجمع بين الطرزين الهندسيين الدوري والكورنتي

وبقرب الكنيسة جرن للعماد غاية في اللطف والدقَّة وهو عبارة عن قبَّة كنصف كرة تستند الى اربع أقواس على شكل بيضي وترى فوق ثلاث أقواس منها اشغالاً هندسيَّة وزيناً حسنة. اما القوس الرابعة فلا تُرى لانها مستندة الى جدار الكنيسة (١

واذا ما خرجنا من سور البلدة لقينا كما في داخلها كميَّة وافرة من عواميد صوَّان متكسِّرة. ومما اكتُشف حديثاً في ارض تخصّ عبد الواحد افندي اساس بناء فخيم اشبه بهيكل. والاساس المذكور بالغ العمق يُدخل منهُ الى أسراب غريبة الشكل لا تُعرف غايتها. وفي المكان عينهِ وُجدت عدَّة قطع تماثيل ونقوش من الرخام الابيض

(١ راجع De Vogüé : Les églises de la Terre S^te, p. 375

مدافن جبيل

ومن آثار جبيل القريبة قبورها القديمة ومدافنها وكان موقعها خارج البلدة ليس بعيدًا عن اسوارها. الّا ان هذه المدافن المعروفة اليوم ليست مدافن الفينيقيين وانّما هي احدث عهدًا كما ارتأى ذلك الدكتور روثيه في بحثه السابق الذكر ولعلّنا نسمع عمّا قليل ببشرى اكتشاف نواويس جبيل الفينيقيّة فينتفع بها العلماء كما انتفعوا باكتشاف نواويس صيدا.

واليوم يصعب علينا ان نُقدّر سعة مدافن جبيل وشكلها بعد ما حلّ البلدة من التقلّبات المتواترة وامتداد الرمل على قسم كبير منها. والارجح ان مكانها المخصوص بها كان في شرقي البلدة وجنوبها

وفي هذه المدافن لم يُكتشف الى يوم تاريخنا شيء من الآثار التي كان الفينيقيون يؤثرونها لقبر موتاهم كما ترى في صيدا وغيرها من المدن الساحليّة. على انّ عدم اكتشافها ليس بسبب كافٍ للجزم بعدم وجودها كما زعم المسيو رينان (بعثة فينيقية ص ٢٠٦). واننا نرجّح مع المسيو روثيه وجود مثل هذه الآثار ولو لم يتوصّل احدٌ بعد الى اكتشافها. لكنّ جبيل لا تخلو من المغاور المخصوصة بدفن الموتى الاقدمين. وقد وجدوا ايضًا حُفرًا منقورةً في الصخر ونواويس لهذه الغاية نفسها

امّا المغاور فعلى ضربين منها طبيعيّة وجدها الانسان فاستخدمها لدفن اموات. ومنها صناعيّة حفرها بيده لهذه الغاية. وبين المغاور الطبيعيّة ما كان عهده قديمًا جدًّا يشبه الكهوف السابقة لزمن التاريخ التي وصفها حضرة الاب زُمُوفن في المشرق (١: ٩٧ و ٣٥٣) احسنها المغارة التي تُشرف على ميل ماء في لحف ضيعة قصوبة على مسافة نصف ساعة من شرقي جبيل. وهي قريبة الشبه بمغارة انطلياس (المشرق ١: ١٠٢) المرتقية الى طور الظرّان. وقد نُقر في جوانبها الداخليّة مخادع كانت تجعل فيها الموتى. وفوق احدها نقش يمثّل محارًا من الصدف الملتوي لعلّهُ من عهد الرومان

ومداخل هذه المدافن تنفتح عموديًا او ببعض انحراف في وجه الصخور. ومنها كثير في الوديان المجاورة لجبيل وفي الصخور التي تطلّ على البحر. وفي بعض الآونة ترى لهذه المدافن نقشًا قليلًا ويُدخل اليها على سواء الرّجل وربّما وجدتَ لها حجرةً او اكثر كانت تشتمل سابقًا على نواويس انتهك حرمتها قومٌ من طالبي الخبايا وباغي العاديّات

لم يبقوا منها الّا قطعاً محطّمة . وفي الغالب لا تجد في هـذه المدافن الّا حُفرًا كالافران منقورة في الصخر

امّا تاريخ هذه المدافن فلا يمكن تعيينهُ لاسيما بعد ان نُزعت منهـا اجهزة الدفن وسُلبت امتعتهُ كما سبق ولو بقيت لاستطاع العلماء ان يستدلّوا بهـا على عهدها . امّا الكتابات فلا يرى منها الّا القليل وهي كلها يونانيّة ورومانيّة . وعليهِ فلا يتّفق علماء الآثار المـاديّة على تعريف عهد هذه المدافن . ومنهم من زعم انها سبقت فتح الرومان للشام . وقد ارتأى رينان انّ بعضها يرتقي الى ايام الكنعانيين

امّا الدكتور روثيه فانّ رأيهُ ان هذه الكهوف كلها من عهد الرومان . وقد دعم قولهُ بحجج حسنة ترجّح رأيهُ دون ان تزيل كل الشبهات . ومن براهينهِ انّ ما وُجد من العاديّات في هذه المدافن منذ ٤٠ سنة لا تصحّ نسبتها الى غير الرومان . فيستنتج من ذلك انّ المكتشفات السابقة لهذا التاريخ كانت ايضاً رومانيّة . (نقول) انّ هذا الدليل لا يخلو من القوّة لكنّهُ ليس بجازم لانّ كثيرًا من هذه العاديّات لا تزال مخفيّة لدى فاتحي هذه المقابر . وكذا نقول عن البرهان الثاني حيث بيّن الدكتور انّ النواويس والنقود التي وُجدت في هذه الكهوف كلُّها من عهد ملوك الروم . فانّنا نسلّم لجنابهِ بقوّة هذه البيّنة لكنّنا لا نجسر ان نحكم في ذلك حكماً فصلًا ريثما يتمّ البحث المدقّق في مستودعات هذه الكهوف . كما انّهُ لا يجوز ان نبني على هذه الاكتشافات الجزئيّة احكاماً عموميّة عن عادات الجبيليين في دفن موتاهم

هذا وانّنا نوافق المسيو روثيه الموافقة التامّـة في نسبتهِ بعض المدافن الى الطور اليوناني الروماني وهي : ١ً المدافن ذات الطبقتين الواقعة في الرملة التي تُرى جنوبي الطريق المؤدية من جبيل الى بيروت . ولكلّ قبور هذا المدفن منافذ على شكل أقواس . ٢ً المنازة الواقعـة على مقربة من المدافن السابق ذكرها اتّخذها ايضاً القدماء كمقبرة وحضيضها مبلّط بالفسيفساء . ٣ً بعض كهوف أخرى طُليت باللاط ومنهـا ما هو مزيّن بالتصاوير . فهذه بلا شكّ ليست من اعمال الفينيقيّين ولكن من المحتمل ان تكون سبقت تاريخ الميلاد بقرنٍ واحد او ازيد على مثال صفائح القبور التي وُجدت في صيداء قبل ثلاث سنين وقد نشرنا كتاباتها في مجلة العاديّات (١ . ٤ً بعض مدافن

(١) راجع Promenade épigraphique à Saida, *Revue archéolog.*, 1898, 4

مقبّبة. ومن المعلوم ان الفينيقيين الاقدمين لم يستعملوا القبب في مدافنهم

نواويس جبيل

نواويس جبيل كنواويس غيرها من المدافن الفينيقيّة. لكنّهُ لم يجدوا حتى الان فيها الّا ناووساً واحدًا يمثل هيئة الجسم البشري (Sarcophage anthropoïde) وهو اليوم في متحف اللوفر. والنواويس الحجرية لا اثر لها في جبيل مع كثرتها في غيرها من المدن الساحليّة. امّا النواويس من الرصاص والآجرّ والحجارة والرخام البلدي مع اطباقها المحدّبة فهي اشبهُ شيء بنواويس بلاد فينيقيّة من حيث هيئتها ونقوشها

وقبل ختام هذا الباب لا بُدّ ان نثبت هنا قولًا لرينان بخصوص اثقاب وشقوق مختلفة الشكل وفي الغالب مستديرتهُ تُرى في قعر النوافذ الداخلة في قلب الارض. فظنّ المسيو رينان انّ العمّة الذين كانوا يحفرون هذه المقابر كانوا يسبرون متانة الصخر بادواتهم قبل حفرهِ ليعلموا ما سيلقون في شغلهم من المشقّة

وقد ردّ الدكتور روفيه على زعم رينان بما لا يُنقض من الحجج فبيّن انّ هذه الاثقاب ليست بصناعيّة وانّما هي صدوع طبيعيّة كثيرًا ما تحدث في الحجارة الرمليّة كما يُستدلّ على ذلك حيثما شاءت هذه الحجارة. وقد رأينا كمثل هذه الشقوق في جبيل نفسها خارجًا عن المدافن

فهذا نظرٌ عمومي لخّصنا فيهِ ما يُعرف عن جبيل وآثارها. فعاديّاتها كما ترى قليلة ولكن لا يجوز للدلماء ان ييأسوا من وجود آثار غيرها. ولقد اساء رينان لمّا قال عن جبيل انّهُ لا يؤمل اكتشاف شيء جديد فيها. وكان دأب هذا الرجل ان يبحث دون تروٍّ كافٍ عن العاديات ولمّا لم يعثر في جبيل على ما كان ينتظرهُ جزم بان هذه المدينة خلوة من المآثر القديمة

امّا نحن فنؤثر رأي الدكتور روفيه حيث قال في خاتمة مقالتهِ عن جبيل: « انّنا نعتبر جبيل ومدافنها كأنّها مجهولة تمامًا الى يومنا. ونظنّ انّ آبارها المتخذة لدفن الموتى قد سُدّت افواهها مع صفائح قبورها بالرمل والتراب المنقول الى هذه المدافن من التلال المجاورة فاتّخذت تلك التلال كجنائن وبساتين وصارت المدافن مطمورة في قعر الارض. ولكن لنا الامل الوثيق ان سيتوصّل عمّا قليل اصحاب الهمّة الى هذه القبور المكتونة في اعماق الارض. ولنا ضمين لتحقيق آمالنا في ما شاهدناهُ في مدافن صيداء التي فيها

وُجد قبر الملك تَبنيت وعـدَّة من نفائس الآثار تخلب عقول الزوَّار في متحف الاستانة العليَّة . والفضل في اكتشافها عائد الى سر مهندس البلدية بشاره افندي

ولعلَّ سمة حدود هذه المدافن البالغة في العمق كسمة المدافن التي اتُخذت بمدننِ بدلًا منها . امَّا مركزها فالارجح انهُ على مسافة ١٠٠٠ او ١٥٠٠ متر من المدينة على منعطف الرُّبى المجاورة . هذا ما يظهر لنا بالحدس والتخمين وهو سبيل ننهجهُ لمن يأتي بعدنا باحثًا في عاديات جبيل »

(ستأتي البقيَّة)

تاريخ فنّ الطباعة في المشرق

نبذة للاب لويس شيخو اليسوعي (تابع لما سبق)

فنّ الطباعة في الشام (تابع)

٢ حلب

سبق لنا في مقالتنا عن ابن الافرنجيَّة الشاعر الحلبي (المشرق ٢ : ٤٤٢) ان النهضة الادبيَّة التي عمَّت اليوم بلاد الشام كان بدؤها في مدينة حلب منذ اوائل القرن الثامن عشر . وقد احرزت لها الشهباء في ذلك العصر مجدًا آخر وهي انها سبقت كلّ البلاد الشرقيَّة بفنّ الطباعة العربية . وكانت بعض مطبوعات لغتنا الشريفة نُشرت قبلها بالاستانة العليَّة لكنَّها كانت بحرف عبراني (المشرق ٣ : ١٧٦) . ثم طُبعت المزامير في قزحيًّا سنة ١٦١٠ بالحرف السرياني المعروف بالكرشوني (المشرق ٣ : ٢٥١) . امَّا الحروف العربيَّة فكان ظهورها لاول مرَّة في حلب في العشر الاول من القرن الثامن عشر

واصل هذه المطبعة مجهول الى اليوم فلا يُعلم من امرها شيء . ولعلَّ حروفها حُفرت وسُبكت في مدينة حلب نفسها . وهي حروف خشنة والطبع عليها غير مُتقن وان كان جليًّا نضرًا

وقد زعم العلامة شنورر (Schnurrer) في كتابهِ « المطبوعات العربية » (ص ٢٧٠) انَّ حروف مطبعة حلب هي حروف مدينة بكرش (Bucharest) عاصمة الفلاخ جلبها الى حلب اثناسيوس الرابع البطريرك الانطاكي . وقد خطَّأ المستشرقُ الشهير دي ساسي